كلمة الوزارة

٥

إسطنبول مدينة الإسلام

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

بقي اسم إسطنبول حاضراً بقوة في الثقافة العربية، لاسيما الشعبية منها، وفي بلاد الشام خاصة، فقد كانت إسلام بول عاصمة الخلافة الإسلامية التي انضوت تحت لوائها أمة العرب أربعة قرون ونيفاً، وقد عشت طفولتي ويفاعتي مع الجيل الذي عاش في كنف الدولة العثمانية من جيل جدي -رحمه الله- فقد وُلد في ثمانينيات القرن التاسع عشر قبل انهيار الإمبراطورية العثمانية، وتوفي في ثمانينيات القرن العشرين، وكانت

إسطنبول بالنسبة له ولأبناء جيله أعظم بلاد الأرض بناءً وعمراناً، وكان من يزورها يقضي بقية عمره يحدث الناس عنها، وأذكر أنني كنت على باب محكمة الجنايات في إدلب مطلع السبعينيات، حين لفت انتباهي رجل في الخامسة والسبعين خارجاً من المحكمة غاضباً (ربما من حكم صدر ضده)، وقد وقف على باب المحكمة يصرخ مزمجراً محتجاً بصوت قوي جمع الناس حوله، وهو يقول: «والله سأوصلها إلى إسطنبول وإلى السلطان عبد الحميد بالذات».. ضحكت مع الناس من الرجل الذي لم ينته إلى علمه أن السلطان مات قبل نحو سبعين عاماً من ذاك اليوم، لكن السلطان عبد الحميد ظل باقياً في ذاكرة من عاصروه، فأما جدي -رحمه الله- فقد كان مثال العظمة عنده (قصر يلدز)، فإذا استنكر اهتماماً ببناء عادي قال: «شو هو قصر يلدز؟»، ولعلَّ إعجابه بهذا القصر ورواياته المثيرة عما حدث فيه من أحداث جسام في نهاية عصر الإمبراطورية، حفزني إلى أن أزور قصر يلدز مرات، وأن أقرأ الفاتحة على روح جدي وعلى روح السلطان عبد الحميد الذي أكن احتراماً عميقاً لموقفه من هرتزل، وقد دفع حياته ثمناً لهذا الموقف، فقد قال إنه لن يسمح لليهود بأن يجعلوا القدس وطناً لهم أو أن يدخلوها إلا على جثته، وللأسف دخلوها على جثته، وأحسب أننا بحاجة إلى إعادة الاعتبار لهذا السلطان الذي ظلمه التاريخ المعاصر، بل نحن بحاجة إلى إعادة قراءة التاريخ المعاصر كله، فهو مليء بالأكاذيب، وكنت أستعرضها داخلي كلما زرت إسطنبول، وقد كانت زيارتي الأولى لها أوائل الثمانينيات، وكنت عائداً من عاصمة رومانيا

(بوخارست) ثم زرتها مرات عديدة، وكنت أحرص في كل مرة على أن أزور جامع السلطان أحمد، وجامع أيا صوفيا الذي كان أضخم كاتدرائية في العالم أيام كانت القسطنطينية قلب العالم القديم مزدهية بموقعها بين قارتين، وكنت أحب السراح على شاطئ البوسفور حيث تختلط مياه البحر الأسود بمياه بحر مرمرة، وأنا أستعيد في الذاكرة ذاك التاريخ الضخم الذي مرّ على هذه المدينة التي تناولتها أحلام نبوية منذ عهد قسطنطين الذي كلفه حلم روحاني بأن يعيد بناءها، وأن يجعلها عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية وقد سماها «روما الجديدة- نوفا روم»، ولكن التاريخ سماها باسمه «قسطنطين»، وسماها العرب القسطنطينية، وكان النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم قد وعد المسلمين بفتحها، وقد تدافع الخلفاء العرب المسلمون لتحقيق تلك النبوءة، وقد توفي بعضهم على أسوارها، لكن الله منّ على الشاب محمد الفاتح العثماني بأن يحقق تلك النبوءة حين فتحها وسماها «مدينة الإسلام» عام ١٤٥٣م، وأنهى إمبراطورية بيزنطة، وقد بنى العثمانيون حضارة إسلامية خالصة في البلدان التي حكموها، وقد امتدت مملكتهم إلى قلوب أوروبة، فضلاً عن مناطق كبيرة في آسية وأفريقية، وكانوا قد أنهوا حكم المماليك في سورية في معركة مرج دابق عام١٥١٦م، وأنهوه في مصر في معركة إمبابة عام١٥١٧م، وانتهت الخلافة العربية التي كانت شكلية في ذاك التاريخ، وانتقل مركز الثقل من مصر وسورية إلى إسطنبول. ولقد فهمت أن العثمانيين حولوا بعض الكنائس إلى مساجد رداً على ما حدث في الأندلس يوم سقطت

غرناطة عام ١٤٩١م، ولكن أكثر المساجد في إسطنبول بنتها زوجات الخلفاء، وقد طفت في أنحاء إسطنبول، وتأملت تأرجحها بين موقعيها الشرقي الإسلامي، والغربي الأوروبي، وكان واضحاً أن البهاء الغربي في الحداثة، لم يضف أي بعد حضاري ذي نكهة متفردة لهذه المدينة التي منحها الإسلام بهاءها الخالد.

كنت أحب أن أطوف الشوارع وحيداً، في منطقة التقسيم، وفي السفح الذي يؤدي إلى قصر دولما بهاتشي، لأستنشق عبق التاريخ العريق، وقد حرصت في زيارتي لإسطنبول قبل عامين مصطحباً عائلتي، على أن تكون الزيارة عبر مكتب سياحي يتيح لنا برنامج تعرف أعمق إلى المدينة، لاسيما أنني حرصت على زيارة جزر الأميرات وبعض المواقع القريبة من إسطنبول، وكنت أحتاج إلى دليل، وكانت المفاجأة أن أجد هذا الدليل الذي استقبلني في مطار إسطنبول شاباً سورياً يعيش قسم من عائلته في تركيا منذ عقود، أما بقية العائلة فهي في اللاذقية، وكثير من العائلات السورية ما يزال بعضها يعيش في تركيا، وقد تعمقت العلاقة بين العرب وجيرانهم الأتراك بفضل ذاك التاريخ المشترك، والثقافة التي ما يزال الإسلام وسيبقى مصدر قوتها ورسوخها.

